٣٤ عفان بن سليمان البغدادى عالج الخلل الاجتماعى بأمواله

البر فى الإسلام يُعَدُّ رابطة بين الإنسان وربه، وهى رابطة رضوان من الله وأجر وثواب وخير وبركة. كما أنها رابطة شكر من الإنسان لله عز وجل على ما أنعم وتفضل وأحسن لعبده، وهى من ناحية أخرى رابطة بين الإنسان وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه، قوامها المودة والتعاطف والرحمة. يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1]. ويقول: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]. ويقول: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[3]. ويقول: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[4]. ومن هذا يتضح أن للبر فى الإسلام مكانة، فنجد المؤمنين الأوائل يحرصون عليه، ومن هؤلاء المؤمنين الشيخ الصالح عفان بن سليمان المصرى البغدادى.

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٨٠.

(٢) سورة البقرة ـ الآية ٢٦١.

(٣) سورة الليل ـ الآيات من ـ ٥ ـ ٧.

(٤) سورة سبأ ـ ـ من الآية ٣٩.

والشيخ الصالح عفان بن سليمان البغدادى. ليس الذى تُعَرِّفُه المراجع العلمية والفلسفية بالفيلسوف الطبيب موفق الدين البغدادى الذى وُلد ببغداد ودرس الطب والفلسفة واشتغل بتدريسهما حينا بدمشق والقاهرة، حيث جاء إلى مصر والتقى بعلمائها كما التقى بالفيلسوف موسى بن ميمون إلى أن توفى فى بغداد عام ١٢٣١ ميلادية.

وكذلك شيخنا الصالح عفان البغدادى ليس الذى تعرفه كتب النقد والأدب بالأديب الناقد عبد القادر البغدادى الذى ولد أيضا فى بغداد وتوفى بالقاهرة عام ١٦٨٢ بعد أن ظل فترة من حياته يدرس العربية وآدابها وأخبارها تاركا أثراً خالداً يقع فى اثنى عشر مجلداً «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» الذى حققه الراحل محمد عبد السلام هارون وغيره من أمهات الكتب.

إن شيخنا الصالح عفان بن سليمان مصرى المولد والمنشأ والممات.. حيث ولد بالقاهرة وعاش فيها ودفن بحى مصر القديمة، ويوجد له ضريح الآن يزوره الناس للتبرك.

وُلد هذا الشيخ الصالح بالقاهرة فى القرن الثالث الهجرى فى عهد أحمد بن طولون.. وكما تقول الروايات والمصادر التاريخية إنه كان يعمل فى مهنة الخياطة، وهى من المهن التى كان ينتسب إليها العديد من أهل زمانه.. وكانت إلى جانب أهميتها من الناحية الاقتصادية تحظى بتوقير الناس واحترامهم.. إذ كان يتردد على أهلها الولاة والأمراء ووجهاء المجتمع القاهرى وقتئذ. وقد بلغ من إحترام المجتمع لهذه المهنة أن هناك من كان ينتسب إليها من الأسر والعائلات فيقال إبن الخياط أو عائلة الخياط. ومع أن الشيخ عفان البغدادى كان فى حرفة الخياطة بسيطاً متواضعاً فإنه كان فى الفقه والدين عظيماً وجليلاً.. فقد كان ينصرف عن عمله ليتوجه إلى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، أو مسجد أحمد بن طولون بالقطائع حيث يحفظ القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ويدرس معانيهما، ويتفقه فيهما على أيدى علماء عصره الذين كان يحضر دروسهم، حتى تكونت لديه وجهة نظر فى الدين والعقيدة.. وصار يقوم بالوعظ والتدريس، وأصبح له تلاميذ كثيرون ممن يتلقون عليه العلم والفقه، حتى اشتهر أمره بين الناس بالشيخ الفقيه الصالح. وذاع صيته فى الأوساط العلمية وقتئذ، فكان ملتقى لطلاب العلم والبحث.

ويستمر هذا الشيخ الصالح على هذا الحال راضياً قنوعاً برزقه البسيط حتى يسافر إلى بغداد مصاحباً ركب قطر الندى.. ويبقى هناك فترة ثم يعود إلى مصر فيصبح فيها موسراً غنياً.. مضافاً إلى اسمه لقب البغدادى وكان يوجه ثروته وغناه للصالح العام، معلناً أن هذه الثروة من رزق الله فلابد أن تقضى حاجة خلق الله.

وتحدثنا الروايات التاريخية فتقول كان الشيخ الصالح عفان بن سليمان تاجراً كثير المال.. ومع ذلك لم يترك شيئاً لذريته من بعده حيث جعل ماله وربحه صدقةلله.. فكان لا يبيت ليلة حتى يطعم أهل خمسمائة بيت فى القاهرة.. معلناً أن ماله ورزقه لله حتى قيل إنه لا يكون هناك جائع فى المكان الذى يوجد فيه الشيخ عفان.

وفى موسم الحج كان ينتظر الحجاج ذهاباً وإياباً بطعام من مصر عند العقبة وفى بره وكرمه يقول السخاوى: اشترى الشيخ الصالح عفان البغدادى ألف جمل من بر «القمح» حتى بلغ ثمنها إلى ثلاثة أمثال قيمتها، وخرج وجلس على باب داره وقال لأحد عماله «اجمع لى من يشترى هذا البر.. فجمع له الناس، فلما قدِّمُوا له أضعاف ما دفع قال: لقد ادخرتها عند الله سبحانه وتعالى ولن أبيعها لكم حتى تستغلوا القراء والمساكين.. وقام وفرقها على الأيتام والأرامل من فقراء المسلمين فى المدينة حتى لم يبق دار من هذه الدور إلا وقد نال نصيبه من هذه الصدقة.

ولقد ذاع صيت هذا الشيخ الصالح بين العام والخاص، والغنى والفقير، حتى كان يسعى إلى مجلسه الملوك والأمراء والعلماء والفقهاء.. وكان قاضى مصر وقتئذ الفقيه الشافعى ابن خيران يخلو به ويسأله عن الناس لكثرة ترددهم عليه، فيرد الشيخ الصالح لا تسألنى إلا عن نفسى وعجزها عن تأدية فرائض الله.

لقد كان الشيخ عفان بن سليمان البغدادى يؤمن بالآية التى يرددها دائماً ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾[1]. أى تطهرهم من الذنوب وحب المال إلى درجة أن يصرفهم عن حب الله وعبادته، وتزكيهم عنده سبحانه وتعالى

(١) سورة التوبة ـ من الآية ١٠٣.

وتنمى حسناتهم. وترفع بها درجاتهم إلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، وذلك لما فيها من ربط الصلات وتوثيق العلاقات بين المحسن بماله، وآخذ إحسانه، ولما فيها من ذهاب الأحقاد بينهما، ولما فيها أيضاً من سد الخلل والتخفيف من آلام الحياة وضيق الرزق. ولما فيها كذلك من التقريب بين طبقات المجتمع الإسلامى حتى لا تكسر قلوب الفقراء بتكبر الأغنياء عليهم.

وكان إذا سئل عن الإنفاق بهذه الصورة غير التقليدية كان يرد بأن ذلك يبارك ماله، ويكون سبباً فى دفع كثير من الأضرار. وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: «حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصَّدَقة، وَادْفَعُوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع».

وهكذا عاش هذا الرجل الصالح حياة حافلة بالعلم والفضل، وبالجود والكرم، وبالسلوك الطيب والعمل الصالح، وبالبر والتراحم.. حتى كانت وفاته عام ٣٢٦ للهجرة، ودُفن فى داره بمصر القديمة.

* * *